هذه الحيوانات أو يُراد بالمشارب ما يُشرب من ألبانها ، واللبن وإنْ كان يُشرب من الأنثى إلا أن الذكر سبب فيه ، فلولا أنها حملتْ ما كان منها اللبن .

ثم تُختم هذه النِّعَم بقوله سبحانه ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾[يس] هكذا بأسلوب الاستفهام ليجيبوا هم ، فالله لا يقول لهم : اشكرونى على هذه النِّعم إنما يقررهم : أهذه تستوجب الشكر أم لا ؟ ثم لو شكرتم فسوف تتعرضون لعطاء آخر وزيادة :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

إذن : كان يجب عليهم أن يشكروا الله على نعَمه ، وأن تدعوهم هذه النِّعَم إلى الإيمان بهذا الإله المنعم الذى يُوالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ولمَ لا والإنسان حينما يكون موظفاً يتقاضى أجره كل شهر من صاحب العمل لابُدَّ أن يُحيِّيه كل يوم ويتودد إليه ، فالمنعم بكل هذه النعم أفلا يستحق أن يُعبد وأنْ يُشكر ؟

وليت الأمر ينتهى بهم عند حَدٍّ عدم الشكر ، إنما يحكى القرآن عنهم فيقول :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾

عجيبٌ أن يحكى القرآن عنهم هذا بعد أن شرح اللهُ لهم آياته التى تثبت وجوده الأعلى ووحدانيته الكبرى ، ففى الآفاق حول الإنسان آيات ، وفى نفسه آيات ، فمَن انصرف عن الأولى أو غفل عنها ، فكيف يغفل عن الأخرى ، وهى فى نفسه وذاته التى لا تفارقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومع ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً (٧٤) ﴾[يس] أى : عبدوها من دون الله ، لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) ﴾[يس] صحيح أن الإنسان يتخذ إلهاً أعلى منه لينصره فى شدته ، لكن إذا كان هذا الإله الذى ترجع إليه فى الشدة هو الذى يرجع إليك ويحتاجك ؛ لتصلحه إنْ كسرتْه الريح ، أو أطاحت به العوارض ، فإن وقع تقيمه ، وإنْ كُسِرت ذراعه أصلحتها ، وإنْ جاء السيل جرفه ، وألقى به فى الوحل ، إذن : كيف يُتَّخذ هذا إلهاً ؟

وتعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما حطم الأصنام سأله قومه : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أوقفهم نبى الله إبراهيم على كلمة الحق التى لا يستطيعون إنكارها ، وهى أنهم جمادات صمَّاء لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] لكن سرعان ما تنبهوا إلى خطورة هذا الاعتراف ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من المكابرة والعناد ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء] عندها رأى إبراهيم أنْ يجابههم بهذه الحقيقة التى يحاولون الانفلات منها ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك يرد الله عليهم : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾[يس] فهم لا ينصرون عابديهم ، إنما العابدون هم الذين ينصرونهم ، ويوم القيامة سيجمعهم الله معاً ، لا يُحشر العابد بدون المعبود لتكون المواجهة ، فلو حُشر العابد وحده لانتظر معبوده

ينصره ويدافع عنه ، إنما يُحشَر الجميع معاً ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] أى : أحضروهم معهم فى النار ، العابد والمعبود ، والمعنى أن هذه الأصنام ستكون وقوداً للنار التى يُعذَّب بها العابدون .

وبعد ذلك يعود السياق إلى رسول الله ، الذى يكابرون فيه ويعاندونه :

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطيِّب خاطره ، والتسلية لا تكون إلا من مُسلٍّ لمسلًّى ، المسلِّى هو الذى أرسل المسلَّى ، فلابد أن يجامله حتى فى الشدة ، وسنة الله فى الرسل جميعاً أن الله ما أرسل رسولاً وخذله أبداً ، وما كانت الشدة فى رحلة وموكب الرسالات إلا تصفيةً لنفوس المؤمنين ، وتمحيصاً لهم ، وتصحيحاً للعقيدة ، حتى لا يبقى إلا المؤمن الحق الذى يتحمل مسئولية الرسالة والدفاع عنها .

لذلك يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٧٦) ﴾ [يس] لا تحزن يا محمد ، والحزن : أسف النفس على عدم تحقيق ما يتمنى الإنسان وطُروء ما يفسد ، فإنْ حَزن رسول الله وانقبضتْ نفسه ، فمَنْ يُسلِّيه ؟ ومَنْ يُخفِّف عنه ؟ يُسلِّيه الذى أرسله ؛ لأنه سبحانه يحصى عليهم كل شىء ، ويعلم ما يُسرُّون وما يعلنون .

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ [يس]

لكن ، ما الذى أسَرَّهُ هؤلاء ؟

الذين واجهوا رسول الله كانوا قسمين : قسم واجهه بشجاعة ، فأعلن بلسانه ما فى قلبه من أنه لا يؤمن به ، وهؤلاء هم الكَفَرة ، وقسم آمن بلسانه وكتم الكفر فى قلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، فمعنى ﴿مَا يُسِرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾[يس] أى : من النفاق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الكفر . أو﴿مَا يُسِرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الإيمان الحقيقى بك ، وأنك رسول وأمين وصادق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الكفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

بدليل أنهم لم يُكذِّبوا القرآن ، ولم يعترضوا عليه ، إنما اعتراضهم أنْ ينزل على محمد بالذات ، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

وبدليل أنهم كانوا يأتمنون رسول الله على ودائعهم وأماناتهم ، هذا كله دليل على إيمانهم برسول الله ، لكنهم مع ذلك أعلنوا كلمة الكفر خوفاً على السلطة الزمنية والمنزلة والسيادة والجبروت ، وقد جاء الدين الجديد ليسلبَ منهم هذا كله ، ويُوقف تسلُّطهم على الضعفاء وعلى الفقراء .

إذن : لا بُدَّ أن يصادموا رسول الله ، وأن يقفوا فى وجه دعوته ، بكل قواهم رغم إيمانهم بصدقه فى قرارة أنفسهم ؛ لذلك كانوا فى المدينة يستعدون لتنصيب ملك منهم[1] فلما دخلها رسول الله واجتمع الناس عليه انفضَّتْ مملكتهم ، وزالتْ قبل أنْ تُولد ، ذهبت السلطة الزمنية التى كانت للكفار كما ذهبت السلطة من أيدى اليهود ، وكانوا أهلَ العلم وأهلَ المال وأهلَ القتال ، ذهب كل هذا يوم علَتْ كلمة الإسلام .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢١٦) أن قوم ابن أبى أُبىٍّ قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فامتلأ قلبه حقداً وعداوة ، ودخل فى الإسلام كارهاً منافقاً حاقداً .

أو : يُرادُ بمـا يُسـرُّون ومـا يعلنون أن عـمل الإنســان حـصـيلة أمرين : شـىء أو حاجة تختمر فى النفس تُعَـدُّ سراً وعقيدة تدفعه إلى العمل فـإنْ ترجمَتْ إلى عمل وبرزتْ للوجـود صارتْ علانيـة ، وعليه يكون المعنى : نعـلم ما يُسِرُّون من عـقائدهم الفاسـدة ، وما يعلنون من فِعْل القبائح .

لكن أيـمـتنُّ الله بـعلم الشىء دون فـائدة من وراء هذا الـعلم ؟ المسـألة لا تنتهى بمـجرد العلم ، إنما لابُدَّ أنْ يتـرتب على هذا العلم جزاءٌ يعـاقب الكافر العـاصى ، ويُثِيب المـؤمن المطيع ، إذن : تدبَّروا أمركم ، واحذروا ما يترتب على هذا العلم من آثار ؛ لأن علم الله ليس (فنطزية) علم ومعرفة .

لذلك قال تعـالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٦٥) ﴾ [يونس] البعض فـهم أن كلمة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٦٥) ﴾ [يونس] هى قول الكافرين ، لكن كيف يقولهـا الكافر ، ليتهم قالوا إنما قالها الله تذيـيلاً لقوله : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٦٥) ﴾ [يونس] لماذا ؟ لأن العزة لله جميعاً .

بعد أن تكلم الحـق سبحانه عـن آياته فى الآفاق فى الأرض وفى الشمس والقـمر والفُلْك والدواب والأنعام يتكلم سبـحانه عن آياته فى النفس الإنسانيـة ، فإذا كانت الآيات فى الآفاق من حولهم لـم تلفتهم إلى الله ، فهذه هى آياته فى ذات أنفسـهم التى لا تفارقهم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾

قوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس] بمعنى يعلم لأن الإنسان لم يَرَ عمليـة الخَلْق فى نفسه ، فإنْ قلتَ : فـمَن الذى أعلمه ؟ ومَن الذى عرَّفه أن الله هو الخالق ؟ قالوا : عرف الإنسانُ هذه الحقيقة ؛ لأن فى الكون كمـالاً لم يدَّعه أحدٌ من الخَـلْق ، ثم فوجئت الدنيـا برسول الله يخبر بأن الله تعالى هو الخالق ، ولم يعـارض أحد ، فهذه إذن دَعْوى ليس لهـا معارض ولا مناهض ، مع أن الإنـسان كثـيراً مـا يدَّعى ما ليس له ، لكن هذه الدعوى بالذات لا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه .

والقاعدة أن الدعوى تثبت لصاحـبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، وإلا لو أن هذه الدعـوى لم تسلم للخالق عـز وجل ، فأين الخـالق ؟ لماذا لم يعـارضها ، ولمـاذا لم يطالب بحقـه فى الخَلْق ؟ إما أنه جَـبُنَ عن المواجهة ، أو أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً .

ونلحظ على سـياق هذه الآيات أن الحق سـبحانه قـال فى الآيات السابـقة : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾[يس] وهنا قال : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴿٧٧﴾﴾[يس] فخاطب الإنسان ، ولم يخـاطب الجـمـاعـة ، قـالوا : لأن هذه الآية نزلـت فى أُبَىٍّ بن خلف[1] حين أمـسك بعظم بَالٍ ، وراح يُفتِّـته أمام رسـول الله ويقول : أتزعمٍ أن ربك يحيى هذا مرةً أخرى ؟ قـال : « نعم يُحييك ، ويُدخلك

(١) وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها :
- نزلت فى أبىّ بن خلف . وهو قول مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة .
- نزلت فى العاص بن وائل . وهو قول لابن عباس .
- نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن سلول . وهو قول لابن عباس . قـال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٨١) عن القول الأخـير : « هذا منكر ، لأن السـورة مكية وعبـد الله بن أبىّ بن سلول إنمـا كان بالـمدينة ، وعلى كـل تقدير سـواء كـانت هذه الآيات قـد نزلت فى أُبىّ بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث » .

النار » ، أو يُراد بالإنسان مطلق الإنسان ، فهى لكل مُكذِّب بالبعث ممَّنْ هم على شاكلة أُبىٍّ .

وقوله سبحانه : ﴿مِن نُّطْفَةٍ ﴿٧٧﴾﴾[يس] العلم التجريبى لم يصل إلى شىء فى مسألة الخَلْق هذه إلا مؤخراً ، يحاول على استحياء كشف بعض أسرار خَلْق الإنسان مما لم نكُنْ نعرف عنها شيئاً من قبل ، والنطفة هى الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعَّالة التى تسبب الإخصاب حين تصل إلى البويضة ، وهذه النطفة تسبح فى سائل هو المنى وتعيش فيه ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة]

وقد أثبت العلم التجريبى الحديث أن النطفة هى المسئولة عن تحديد الذكورة أو الأنوثة ، والبويضة ما هى إلا وعاء فقط . إذن : لا دَخْلَ للمرأة فى هذه المسألة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة] أى : من النطفة ، وقلنا : إن من العجيب أن المرأة العربية قديماً فطنَتْ إلى هذه الحقيقة التى لم يتوصّل إليها العلم إلا حديثاً .

أما حديث النبى ﷺ فى هذه المسألة : « إذا غلب ماءُ الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا غلب ماء المرأة نزع الولد إلى أمه»[1] فهموا من هذا الحديث أن تحديد الذكورة أو الأنوثة يتوقف على الماء الذى يسبق ، لكن حين نتأمل اللفظ نفسه ، فكلمة (غلب) تدل على

---

(١) هذا الحديث جواب من رسول الله على سؤال من عبد الله بن سلام : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال ﷺ : « أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » . فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) من حديث أنس . وعند مسلم فى صحيحه (٣١١) كتاب الحيض من حديث أم سليم : « إن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه » .

الغلبة والسباق ، والسباق لا يكون إلا لعناصر تخرج من نقطة واحدة ، وتنطلق فى اتجاه واحد ، إذن : فهما غير متقابلين ، فمعنى يغلب يعنى يسبق .

وقلنا : إنهم الآن تنبهوا إلى أن البويضة حين تخرج من المرأة تُحدث تغييراً كيماوياً فى تكوين المرأة يُسبِّب ارتفاعاً فى درجة الحرارة وتغيُّراً فى المزاج وفى نبضات القلب ؛ لذلك اخترعوا ساعة تقيس هذه التغييرات ، وتعرف بها المرأة موعد نزول البويضة .

والنطفة ميكروب متناَه فى الصِّغر ، لا يُرىَ إلا بالمجهر ، ورحم الله العقاد[1] الذى قال كلمةً موجزة تصور هذا الصِّغَر ، فقال : إن أنسال العالم كله ـ يعنى النطف التى كوَّنتهم – يمكن أن توضع فى نصف كُسْتبان الخياطة . فسبحان الخالق الذى يُخرِج من هذه النطفة المتناهية الصِّغر إنساناً كاملاً ، ويُنشىء منها العظام الصلبة والعضلات نصف الصلبة والرِّخْوة ، وأنشأ منها الغضاريف والأعصاب والدم السائل والمخ .. الخ .

هذا فى الجسم المادى ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الذى يفهم ، واللسان الذى ينطق ويتذوق ، والعين التى ترى ، واليد التى تبطش ، والأنف الذى يشم ، والأنامل التى تلمس ، والرِّجْل التى تسعى .

هذه كلها من النطفة ، هذا الميكروب الذى لا يُرى بالعين المجردة ، هذه النطفة التى عبَّر عنها القرآن بالماء المهين ، مهين لأن

---

(١) هو : عباس محمود العقاد ، إمام فى الأدب ، من المكثرين كتابة وتصنيفاً ، أصله من دمياط ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى وكان أحدهم يعمل فى « عقادة » الحرير ، فعرف بالعقاد . أمه كردية . ولد عام (١٨٨٩ م) فى أسوان ، توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤م عن ٧٦ عاماً ودُفِن بأسوان . [الأعلام للزركلى ٣/٢٦٦]

الإنسان يتبوله ويخرج من مجرى البول ، ويُلقى فى دورات المياه مع القاذورات ، وإن أصاب ملابسك لا بُدَّ أن تُغسل . ومن هذا الماء المهين يُخْلق الإنسان ، بل ويصل إلى أعلى مراتب الطغيان والجبروت ، كيف ؟

قالوا : لأن الإنسانَ له صفات حسنة فى ذاته ، ومواهب يحب أن يظهرها ، فإنْ كان مع أحبابه أعجبه شكله الجميل أو ماله أو ذكاؤه .. الخ ، فيحاول أن يُبيِّن هذه المواهب لهم ، فإذا عُودى كانت له مواهب أخرى فى أعدائه ، ومع العدو يُجنِّد الإنسان كل مواهبه لينتصر على عدوه ، هذه مواهب فى الغضب وفى الخصومة والجدال .

لذلك قال أحدهم :

وكم مِنْ نِعْمَةٍ لله فِىَّ حَمَدْتُها ... يُجَمِّعُها فِىَّ مَوَاهِبُ ثلاث

أولاَهُما لنَفْسى وثانيتهما لأحْبَابى وأصْحَابى ... وثالثهما لخصْمى

هذا كله معنى ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾[يس] يعنى : بعد أنْ خلق الإنسان من هذه النطفة ومن هذا الماء المهين فوجئنا بأنه ﴿ خَصِيمٌ (٧٧) ﴾[يس] يعنى : عدو لدود ﴿ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾[يس] يعنى : يبين عن مواهب العداء عنده إبانةً واضحة ، والإنسان لا يكون مُبيناً لغيره إلا إذا بَانَ الشىء فى نفسه هو ؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، فالمدرس الفاشل هو الذى لا يستطيع أن ينقل المعلومة لتلاميذه ؛ لأن المعلومة غير واضحة عنده ، ولو كانت المعلومة واضحة فى ذهنه لاستطاع أنْ ينقلها بأىِّ أسلوب .

إذن : المعنى ﴿ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾[يس] يُحسن الإبانة عَمَّا فى نفسه ؛ لذلك تقول : أبنتُ لك لأنها بانت عندى ، وأعلمتُك لأنها عُلمت عندى ، وأفهمتُك لأننى فهمتُ ، فهما إذن موهبتان ، والإنسان ترتقى مواهبه ويجند كل صفاته فى الخصومة لا يدخر شيئاً منها ، ففى الخصومة

يُظهر ما عنده من المال أو الشجاعة أو الحيلة .. الخ .

وعجيبٌ أن هذا كله كامن فى النطفة ، وعجيبٌ أيضاً أن ينقل الإنسانُ هذه الخصومةَ من ذات نفسه ، ومن خصومته لأعدائه إلى خصومة ربه وخالقه .

لذلك قال تعالى بعدها مُصوِّراً هذه الخصومة لا مع أُبَيٍّ سبب نزول الآيات ، إنما مع كل مَنْ هو على شاكلة أُبَيٍّ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾

تحدَّثنا عن ضرب المثل وقُلْنا : الضرب إيقاع جسم على جسم بعنف ، ويُشترط فيه أن يكون الضاربُ أقوى من المضروب ، وإلا كانت النتيجة عكسية ، ومن ذلك قول الرافعى[1] رحمه الله :

أَيَا هَازِئاً مِنْ صُرُوفِ القَدَرِ ... بِنفسِكَ تَعْنُفُ لاَ بِالقَدَرْ
وَيَا ضَارِباً صَخْرَةً بِالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَرْ ؟

كذلك ضَرْب المثل هو إيجاد شىء يُوقع على شىء ، ليبين لك الأثر الحاسم الفعَّال ، فحين تشكّ مثلاً فى شىء يُوضِّحه لك بمثَل لا تشك فيه ، فيُقرِّبه إلى ذهنك ، ومن ذلك قوله تعالى لما أراد أنْ

(١) هو : مصطفى صادق الرافعى . عالم بالأدب شاعر ، أصله من طرابلس الشام ، ومولده فى بهتيم بمنزل جده لأمه (عام ١٨٨١م) وتوفى بطنطا عام (١٩٣٧م) ، شعره نقى الديباجة فى أكثره ، ونثره من الطراز الأول ، له « وحى القلم » ، « ديوان شعر » ، « تاريخ آداب العرب » .

يُوضِّح لنا بطلان الشرك ، والفرق بينه وبين التوحيد ، قال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً[1] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

نعم ، لا يستوى عبد يتنازعه عدة أسياد ، وعبد مِلْك لسيد واحد ، كذلك لا يستوى التوحيد والشرك .

فقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً (٧٨) ﴾ [يس] أى : أبىّ بن خلف ، والمثل الذى ضربه أنْ أخذ عَظْماً قد بَلِى ، وراح يُفتِّته أمام رسول الله وهو يقول : أتزعم يا محمد أن ربك سيحيى هذا ، بعد أنْ صار إلى ما ترى ؟ وإنْ كانت الآيات نزلت فى أبىٍّ ، إلا أنها لا تقتصر عليه ، إنما تشمل كل مُكذِّب بالبعث ، مُنكر لهذه القضية

ومعنى ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ (٧٨) ﴾[يس] يعنى : لو تذكَّر خَلْقه هو ، وتأمل فى ذات نفسه وجد الدليل على ما يُكذِّب به ؛ لأن الله خلقك من العدم ، فصار لك وجود ، فإذا مِتَّ بقيتْ منك هذه البقايا التى تُفتِّتها منثورة فى الأرض ، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أن الإيجاد من موجود أهون من الإيجاد من العدم ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧) ﴾ [الروم]

الحق سبحانه فى هذه الآية يخاطبنا على قَدْر عقولنا ووَفق منطقنا ، وإلاَّ فلا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، ولا سهل وأسهل ، هذا يُقال فى حق البشر فحسب .

وقوله : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾[يس] حينما ألقى هذا

(١) أى : مِلْكاً خالصاً له ، لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/٣٢٤] .

السؤال على الكافرين المكذِّبين بالبعث يقولون : لا أحد يستطيع أنْ يُحيي الموتى ، لماذا ؟ لأنه يقيس المسألة على عَجْز القدرة فى البشر ، لا على طلاقة القدرة فى الخالق سبحانه .

والعجيب أن الله تعالى يُثبت للإنسان صفة الخَلْق ، فيقول : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾ [المؤمنون] والإنسان ينكر ويُكذِّب بقدرة الله فى الخَلْق ، فإذا كان ربك لم يَضِنّ عليك بأنك خالق ، فلا تضنّ عليه بأنه أحسن الخالقين .

وقلنا : إذا وجدتَ صفة لله تعالى ووصف بها البشر فلا بُدَّ أنْ تأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ⑪ ﴾ [الشورى] فلله تعالى وجه لا كالأوجه ، وله سبحانه يد لكن ليستْ كالأيدى .. وهكذا ؛ لأن الله تعالى واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله . الله موجود وأنت موجود ، لكن وجودك ليس كوجوده ، الله غنى وأنت غنى ، لكن غنَاك ليس كغنَى الله ، غنَى الله ذاتيٌّ لا ينفصل عنه سبحانه ، أما غناك فموهوب .

الله خالق وأنت خالق ، لكن فَرْقٌ بين خَلْقك وخَلْق الله ، خَلْقك من موجود وخَلْقه تعالى من عدم ، خَلْقك جامد لا حياة فيه ، وخَلْق الله فى حياة فينمو ويتغذى ويتكاثر .. الخ فأنت خالق ، لكن ربك سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : لله تعالى صفات الكمال المطلق ، يُفيض منها على خَلْقه فيعطيهم من صفاته تعالى ، لكن تظل له سبحانه طلاقة القدرة .

ومعنى﴿ رَمِيمٌ ⑱ ﴾ [يس] قديمة بالية تتفتت .

ثم يردُّ الحق سبحانه على هذا المكذِّب وأمثاله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ⑲ ﴾[يس] ومعنى ﴿ أَنشَأَهَا ﴾يعنى : من العدم ، ولأنْ

ينشئـها من موجـود أولَى ، وقوله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ (٧٩)﴾[يس] فى الرد على هذا المكذِّب يوحى بأن هناك مرة أخرى ، وإحياءً آخر غير الأول﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾[يس] أى : بالخَلْق الأول وبالخَلْق الـثانى ، فـالعلم بالخَلْق الأول أنْ يعطيه صفات ومـواهبَ فى ذاته ، وأنْ يستعمره فى الأرض ، وأن يجعلَ له منهجاً ينظم حياته فيها .

وبهذا المنهج أرشده إلـى سبيل الخير ، وحـذَّره من سُبل الشر ، وأوضح له الجزاء على هذا وذاك ، وهـو سبحانه عـليم بالخَلْق الآخر فى الآخرة . أى : يعلم كيف يجازيه على ما قدَّم . إذن : معنى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾[يس] يعنى : عـليم كـيف يُكلِّفـه ، وعليم كـيف يجازيه ، وعلى قَدْر التكليف يكون الجزاء .

الفلاسفة المـسلمون أحبوا أنْ يوضحوا لنا هذا المـعنى ، فقالوا : حينمـا أراد الله أن يخلق من العدم وقبل أنْ توجد السـماء أو الأرض قال : اخـرجى يا سمـاء كونى سمـاءً فكانت ، وهكذا الأرض . إذن : قادريته سبحانه هى التى فعلت ، ومقدورية الأشياء هى التى انفعلت ، فمـا الذى انتهى من هذين الـعنصرين ؟ إنهمـا باقيـتان مـوجودتان : قادرية الفاعل سبحانه ، ومقدورية الأشياء .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾

الحق سبحانه يسوق لهم دليلاً آخر على طلاقة قدرته ، فإن كنتم تُكذِّبون بالبـعث ، فـانظروا إلى هذه الآية الماديـة التى تشاهدونـهـا ، فالذى يُحيى العظام التى رَمَّتْ هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً تُوقدونـهـا ، فيشـتعل العود الأخـضر ، والخـضرة دليل الرطوبة

والمائية ، فكيف تأتى النار من الماء ، هذه آية يرونْها فى البيئات العربية كل يوم ، ومعلوم أن الحطب هو أول وقود عرفه الإنسان واستخدمه بسلام ؛ لأنه أصْفَى وقود ، وهو صِحىٌّ لا يلوث البيئة ، ولا يضر بها ، ولك أنْ تقارن بين وقود الحطب ووقود البترول مثلاً ، لتعرف الفَرْق .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا تَرقٍّ فى الدليل ، فبعد أنْ ذكر سبحانه آية جَعْل الشجر الأخضر ناراً ، يسوق الدليل الأقوى ، وهو خَلْق السموات والأرض ، السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس لنا ، نشاهده ونباشره . وحيثية هذه الآية جاءت فى آية أخرى ، حيث قال الحق سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإنْ قُلْتَ : علِّلْ لنا أن خَلْق السموات والأرض مع أنها لا تحس ولا تتكلم ولا تعلم .. الخ . أكبر من خَلْق الناس ، نقول : نعم خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ؛ لأنها منذ خلقها الله على حالها لم تتغير ، وستظل إلى قيام الساعة ، أما أنت أيها الإنسان فتموت ، تموت وأنت طفل ، بل وأنت جنين فى بطن أمك ، تموت وأنت شاب وأنت شيخ هَرِم ، وقصارى ما يمكن أن تصل إليه لو عُمرت فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأين عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وَهل رأيت خادماً أطول عمراً من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً ، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى السماء والأرض كما هى شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا تخرج عن قانون التسخير فى شىء أبداً ، ومنذ أن خلق الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلَّف عن موعده ، أو امتنع عن أداء مهمته .

هذا حال الجمادات فى السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها العقلاء ؟ لو تحدَّثنا فى المادة فهى تبقى وأنتم تموتون ، وفى المعانى والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم تـ اندون وتختلفون وتتصارعون ، فأيُّكم إذن أحسن خَلْقاً وأكبر ؟

لذلك يجيب الحق سبحانه على هذا الاستفهام المنفى : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم** ..(٨١) ﴾ [يس]

فيقول (بَلَى) أى : نعم قادر ﴿ **وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ** (٨١) ﴾[يس] وخلاَّق صيغة مبالغة من خالق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذِّب بها ، وهو سبحانه ﴿ **الْعَلِيمُ** (٨١) ﴾[يس] أى : بمَنْ خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مُكذِّب بالبعث ، كأن الله يقول لهم : يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله على بَعْث العظام التى رمَّتْ ، أتظنون أن الله يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم ، الله الخالق لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكلمة (كُنْ) ، بل يخلق سبحانه بمجرد مراده ، فإنْ أراد شيئاً كان ، دون أنْ يقول ، ودون أنْ يأمر ، وما كلمة (كُنْ) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا .

وسبق أنْ أوضحنا هذه العمليـة بمثال ، ولله المثل الأعلى ، قلنا : كيف تنكر أيهـا الإنسان قدرة الله ، وقـد أفاض عليك بمـثلها فى ذات نفسك ، فـأنت مثلاً حينمـا تريد أنْ تقوم من مجلسك ، مـاذا تفعل ؟ هل أمرتَ العضلات أنْ تتحرك ، بل هل تعرف أصلاً ما هى العضلات التى تقيمك ، وما الأعصاب التى تتحكم فى هذه العملية ؟

إنك تقوم بمـجرد إرادتك للقيـام وليس لك دَخْل فيـها ، بدليل أن الطفل الصغـير الذى لا يعرف عن تكوين جسـمه شيئـاً يقوم إذا أراد القيام ، فـإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تنفعل لك الأشـياء دون أنْ تقولَ لها انفعلى ، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا فى حق ربك وخالقك ؟

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا آمر أعضائـى وأقول لها : اعملى كذا وكذا ؟ نقول : الحق سبـحانه يقول للشىء كُنْ لأنه سبحـانه يعلم أن الأشياء سـتـأتمر بأمـره ، ولن تخـرج عن مـراده ، إنمـا هل أنت واثق أنهـا ستـأتمر بأمـرك إنْ أمرتها ؟ إنـك لا تثق بهذه المسـألة بدليل أن الله تعالى حـين يسلب الإنسان هذه الـقدرة تخرج أعـضاؤه عن طاعـته ، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع ، تشل الأعضاء فلا تتحرك .

إذن ، نقـول : إذا كـان المـخلوق مـجـرد إرادته تسـيطر على جوارحه ، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمـة (كُنْ) يقولهـا الله ليقرِّب لـنا فَهْم المـسألة ، ويقـولها لأن الأشياء لا تتخلف أبداً عن طاعته والانفـعال لأمره ، إنما أنت إنْ قُلْتها فلن يسمعك أحد ؛ لذلك قال سبحـانه موضحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾[الانشقاق] أى : حَقَّ لها أنْ تسمع ، وأنْ تطيع .